بسم الله الرحمن الرحيم

تقدير

للدكتور مهدى علام

من مكتبتى

أعود مرة أخرى إلى رفوف مكتبتى ، لألتقى بأحد أصدقائى بها ، فأحدث قرائى عنه ، كما فعلت فى عدد من المقدمات التى صدرت بها أجزاء مجلتنا الموقرة .

هذا الصديق هو كتاب « أوهام شعراء العرب فى المعانى » تأليف المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا . وترجع صلتى بذخائر تيمور الأدبية إلى نحو نصف قرن ، وترجع علاقتى بهذا الكتاب إلى ثلث قرن . ففى منتصف الثلاثينيات كنت أشتغل ببحث رجعت فيه إلى المخطوطات فى « الخزانة التيمورية » التى كانت تحتل قاعة خاصة بها فى دار الكتب المصرية ، بباب الخلق . ولم يبهرنى يومئذ ماعثرت عليه هناك من المخطوطات النادرة المتصلة ببحثى ، قدر مابهرنى من التعليقات التحقيقية التى وُشِّيَتْ بها صفحات الكتب التى تملأ الخزانة التيمورية . إن عناية المرحوم أحمد تيمور باشا بجمع الذخائر العلمية كانت أمراً معروفاً لأهل الأدب والثقافة ، أما التعليقات والحواشى التى خطها هذا العالم بخطه الواضح الجميل على صفحات كتبه فلم يكن يعرفها ، ويعرف قيمتها ، إلا من اطلع عليها . وقد بهرنى منها أمران : غزارتها ودقتها . أما غزارتها فتبدو لكل مطلع عابر ، يقلب الكتب ويتصفحها . وأما دقتها فلا تتجلى إلا للباحث الذى يسعى وراء تحقيق مسألة من المسائل . فإذا حدث أن مثل هذا الباحث المتخصص رجع إلى أحد الكتب أو المخطوطات التى فى هذه الخزانة الميمونة ، ألفى أن ما خطته يد ذلك الشيخ الجليل ، لم تكن خواطر عابرة ، مما يجده المرء عادة على هوامش بعض الكتب ، بل كانت تحقيقات علمية يثرى بها العلم ويستنير بها الباحث .

وكانت إشاراته يلاحق بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا . فمثلا : إذا علق فى موضع من كتاب على مسألة ، قال : ولهذه المسألة تكملة أو معارضة فى صفحة كذا من الكتاب الفلانى ، ثم نجد فى ذلك الكتاب الآخر إشارة إلى ما فى الكتاب الأول ، وهكذا على نسق ما هو

متبع فى أدق نظم المراجع والفهارس ، مما هو معروف باسم Cross - references أو ما يمكن تسميته بالإشارات المتقاطعة .

لقد كنت أتعقب تاريخ شاعر أندلسى عظيم ، نسيه الزمن ، ولم تنتبه له كتب الأدب إلا نادرا ، ولم يظفر بحظ فى كتب التاريخ المتداولة ؛ حتى « دائرة المعارف الإسلامية » لم تَجُدْ عليه ، ولا على مؤلَّف من مؤلفاته بكلمة واحدة . ولكننى وجدت فى مخطوط من مخطوطات تيمور العظيم ، تعليقات تشير إلى بعض المراجع التى فيها شذرات عن ذلك الشاعر العظيم : « حازم القرطاجنى » . (كتبت عنه بعد ذلك فى « حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس » العددان الأول والثانى سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢)

ولكم تمنيت يومئذ أن يتيح الله من يدرس هذه التعليقات ليضم مؤتلفها ، ويمحص مختلفها ، ليكون ذلك فى متناول العلماء والباحثين .

ولم أكن أعلم أن تيمور العظيم كان قد قام هو نفسه بذلك ، أو ببعضه على الأقل ، مما تولت إخراجه فيما بعد « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » . وكان من حظى أن عهدتْ إلى هذه اللجنة فى سنة ١٩٤٩ تحرير بعض هذه المؤلفات والتقديم لها .

وهذا هو الكتاب الذى أتحدث عنه اليوم ، بعد أن تحدثت عنه فى ديسمبر ١٩٤٩ — جمع تيمور فى هذا الكتاب « أوهام شعراء العرب فى المعانى » : جمعها من لسان العرب ، والمزهر ، والأغانى ، والخصائص ، والعقد الفريد ، ومحاضرات الأدباء ، والتنبيهات ، والوساطة ، ومجالس أبى مسلم ، والموشّح ، وسفر السعادة ، وخزانة الأدب ، وشروح الدواوين الشعرية المختلفة ، وغيرها من الكتب التى قرأها وعلق عليها .

ولم يكن تيمور العظيم فى هذا الكتاب متعقباً لأخطاء الشعراء ، كما لم يكن ، فى أى تعليق من تعليقاته ، متعقبا لأخطاء الكتاب والمؤلفين ، حبا فى تسجيل خطأ المخطئين ، بل كان يريد تصويب الأمر بتسجيل الصواب ، ووضع الأمر فى نصابه ، فهو ليس من العيابين الذين يتصيدون الهفوات ، أو يختلقونها ، بل كان من المصلحين . يتجلى ذلك فى مناقشته لآراء النقاد الذين يخطّئون الشعراء فى معانيهم . فهو لا يفرح باكتشاف خطأ ليسجله شأن فقراء النفوس ، وفقراء العلم ؛ ولكنه كما يتعقب الشعراء ، يتعقب النقاد وينصف أولئك من هؤلاء . فعل ذلك فى ثلاثة مواضع : حين أنصف أبا النجم من ابن قتيبة وأبى هلال العسكرى (ص ١٦) ؛ وحين أنصف النابغة الذبيانى من الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء

(ص ٢٤) ؛ وحين أنصف زهير بن أبي سلمى من موَّلفي العقد الفريد ، والوساطة . والموشح : وسر الفصاحة ، والموازنة ، والصناعتين ، وطبقات الشعراء ، فقد اتهموه بالخطأ حين وصف الضفادع بأنها تخرج من الماء على جذوع الشجر «يَخْفِقْنَ العُمَّ والغَرَق» لأنها إنما تخرج لتبيض وتفرخ في الشطوط . واستشهد تيمور بقول من برَّأ زهيراً من الخطأ : إنه لم يُرِد أنها تخاف الغرق على الحقيقة ؛ وإنما أراد المبالغة في كثرة الماء (ص ٣٥)[1]

وبهذه المناسبة سألني أحد الطلاب يوماً ، وأنا أتكلم عن قول المتنبي في وصف حسَّاده ؛ إذ يضرّهم إنشاد قصائده كما تضرّ رياحُ الوَرْد بالجُعَل (نوع من الخنافس) :

بِذِي الغَباوةِ من إنشادها ضرر كما تُضِرُّ رياحِ الورد بالجُعَلِ

أصحيح أنّ الجعل يضرُّ بها ريح الورد ؟ فكان جوابي : أنني لم أقم بتجربة أتبين منها صحة ذلك ؛ وأغلب الظن أنها لا تضر بها ، وإنما تصوّر المتنبي أن الجعل تتأذى بريح الورد لأنها تعيش في بيئة قذرة ، ولعل ذلك من أوهام الشعراء . ولم أكن أدري يوم قلت ذلك أنه سيصبح من حسن حظي أن أكتب مقدمة لكتاب في « أوهام الشعراء في المعاني » لعالم من أعظم علمائنا . تغمده الله تعالى برحمته ؛

محمد مهدي علام

الأمين العام للمجمع والمشرف على المجلة

---

(١) إني أعجب أنه لم يخطر ببال هؤلاء الأفاضل أن ذلك قد يكون من قبيل « حسن التعليل » .